سوري وبحاثة بارز في مراجع التاريخ العربي ــ الاسلامي ومصادره ، كان من بين الاوائل الذين عبروا عن شعورهم بالخيبة ونقمتهم ضد سياسة التفرقة والانقسام التي تسير عليها كل من بريطانيا وفرنسا . ففي قصيدة له كتبها عام ١٩١٩ ، نجده يتحسر على لامبالاة العرب التي تبدت بينما كان « الوطن السوري » يقتطع الى أجزاء وكيانات: لبنان وسورية وفلسطين . وهو يسعى ، من خلال استحضاره لامجادهم الماضية ، الى أن يخلف لديهم الانطباع بالحاجة الملحة الى الاتيان بعمل بطولي جديد . ان الزركلي يردد أصداء روح القصيدة التقليدية (المعلقة الجاهلية) لكي يلتمس في البداية تلك الجذور التاريخية العربية للارض كمقدمة لرفضه المزاعم الغربية في ادعاء أي جزء من وطنه . ثم يتحدث عن محاولة شعبه لصيانة حقوقهم عن طريق المفاوضات السلمية على أمل اهتداء الغرب ــ الذي ترمز اليه الشراهة ــ الى جادة الرشاد . ويلجأ اخيرا الى أسلوب شعري قديم هو قسم اليمين ، حيث يقسم بأنه لو غادر المعتدون وطنه ، فان شعبه سوف ينظر الى بادرتهم بعين الود والصداقة . اما اذا استمروا في عدوانهم ، فالسيف هو الحد الفاصل في ثورة عربية متجددة(٦).

ان وديع البستاني (١٨٨٦ ــ ١٩٥٤) ، المسيحي اللبناني الذي انضم الى الادارة البريطانية في فلسطين عام ١٩١٧ ، اعترته الصدمة لدى وصوله اذ رأى مكتبا للوكالة اليهودية ، مما حمله على النظر الى ذلك المكتب كعلامة تنذر بالشؤم . فقد عبر عن مشاعره في قصيدة خاطب فيها البريطانيين مذكرا اياهم بقوله :

فتحنا لكم صدرا مددنا لكم يدا واني لاخشى ان تديروا لنا ظهرا

ثم يتحدث عن هوة سحيقة تزداد عمقا بين شعبه والبريطانيين ، ويطلق تحذيره لرؤية « الوطن القومي يعلو بناؤه » . ان سوء ظنه بالسياسة البريطانية وارتيابه بالاطماع الصهيونية هي موضوعات استمرت تتخلل شعره طيلة ما يزيد على ثلاثين عاما. وديوانه الذي يحمل عنوان « فلسطينيات » (١٩٤٦) هو خير شاهد على ذلك(٧).

ويحاول الموضوع الثاني أن يدلل على كون المعارضة ليست موجهة ضد اليهود او ضد الهجرة المحدودة ، بل هي موجهة بالاحرى ضد فرض حل أوروبي وأجنبي يضير بحقوق الاكثرية في فلسطين . فباستطاعة المرء ان يذكر أمثلة عديدة لا تبرهن على هذه النظرة فحسب ، بل تبين الاحترام للتراث الديني اليهودي . وقبل شهرين من صدور تصريح بلفور قام أمين الريحاني ، وهو شخصية مسيحية بارزة في أوساط الجالية العربية ــ الاميركية بمدينة نيويورك ، بنشر مقالة في احدى المجلات الدورية الاميركية تحت عنوان « البلاد المقدسة : من يمتلكها ويحتفظ بها »(٨)، حيث كرر النقطة ذاتها . ان الريحاني رفض الصهيونية باعتبارها غير عملية ومشحونة بالاخطار ، لكي يتراءى له كحل مثالي : قومية سورية تشمل جميع العناصر الدينية في البلاد السورية بأكملها . فهو يقول : « اليهود السوريون والمسيحيون السوريون والمحمديون السوريون سوف يكونوا جميعا مواطنين لبلاد واحدة ، لبلاد تبقى موحدة وغير قابلة للتجزئة ، ومما يرتجى لها ان تتمتع في القريب العاجل ببركات حكم ليبرالي وعادل ، حيث كل امرىء ... يشارك بالتساوي في الحقوق الدينية والسياسية نفسها ، وينعم بالمساواة اياها في الحرية والحماية »(٩). وفي العام ١٩٢٠ ، عندما كان المناخ السياسي في فلسطين متوترا ، قام الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي (١٨٧٣ ــ ١٩٤٥) بتوجيه قصيدة الى هربرت صموئيل ، المندوب السامي اليهودي ، مشددا فيها على صلات القربى بين العرب واليهود ، لكنه حذر أيضا من انتهاك الحقوق العربية(١٠). أما أحمد شوقي (١٨٦٨ ــ ١٩٣٢)، الشاعر العربي الوحيد الذي جرى تتويجه اميرا للشعراء ، فانه يعتز في قصيدة وطنية له يعظم بها مصر بحقيقة كون التراب المصري قد باركه موسى الذي اجترح معجزة العصا . وفي مناسبة أخرى يأتي شوقي من جديد على ذكر موسى في معرض تغنيه بنهر النيل . والحق